

1. مفهوم العلامة ومكوناتها عند شارل سندررس بيرس.

مؤسس "السيميوطيقا" الأمريكي "شارل سندررس بيرس" الذي صاغ تصوره الخاص بهذا العلم، في نفس الفترة التي كان فيها "فرديناند دوسوسير" يؤسس لعلم جديد أطلق عليه "السيميولوجيا".

السيميولوجيا والسيميوطيقا متقاربان في المعنى، يقومان على دراسة العلامات أو الدلائل، وإن كان هناك تمييز بينهما فهو يعود إلى النزعة الإقليمية بدرجة كبيرة، على حد تعبير "ترنس هوكز" "من غير اليسير التمييز بينهما، وتستعمل كلتا اللفظتين للإشارة إلى هذا العلم (علم الدلائل)" والفرق بينهما أن السيميولوجيا مفضلة عند الأوربيين تقديرا لصياغة دوسوسير، بينما الناطقون بالإنجليزية يميلون إلى تفضيل السيميوطيقا احتراما للأمريكي شارل سندررس بيرس.

سيميوطيقا بيرس لا تتفصل عن المنطق والفينومينولوجيا والتأويل، وهي باعتبارها تبحث في الأصول الأولية لانبثاق المعنى من الفعل الانساني، تقتضي في تصوره النظر إليها باعتبارها طرقا استدلالية، يتم بموجبها الحصول على الدلالات وتداولها. ومن جهة ثانية ترتبط السيميوطيقا ارتباطا وثيقا بعمليات الإدراك، ويقترح بيرس رؤية فينومينولوجية للإدراك، ترى في كل ما يفعله الانسان سيرورة بالغة التركيب والتداخل، يمكن النظر إليها باعتبارها تداخلا لمستويات ثلاثة (المقولات الثلاثة لبيرس).

نظام بيرس السيميوطيقي هو عبارة عن مثلث، أي أن العلامة عنده تقوم على ثلاثة عناصر أساسية بخلاف سوسير. فالعلامة هي ماثول يحيل على موضوع عبر مؤول. وهذه الحركة (سلسلة الاحالات) هي ما يشكل في نظرية بيرس ما يطلق عليه السيميوز

(Semiosis)، أي النشاط الترميزي الذي يقود إلى انتاج الدلالة وتداولها، بعبارة أخرى أن السيميوز هي المسؤولة على إقامة العلاقة السيميائية الرابطة بين الماثول والموضوع عبر فعل التوصل الالزامي الذي يقوم به المؤول، وعلى هذا الأساس فإن السيميوز تتحدد باعتبارها سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة، وتستدعي استيعاب الكون من خلال ثلاثة مستويات: ما يحضر في العيان (الموضوع)، وما يحضر في الأذهان (المؤول)، وما يتجلى من خلال اللسان (الماثول).

واستنادا إلى هذا وجب النظر إلى العلامة باعتبارها وحدة ثلاثية المبنى، غير قابلة للاختزال في عنصرين، فإذا كان دوسوسير يصر على استبعاد المرجع من تعريفه للعلامة، ويعتبره معطى غير لساني، فإن بيرس ينظر إلى المسألة من زاوية أخرى، فبناء العلامة يرتكز في تصوره على فكرة الامتداد، التي تجعل الكون بكل مكوناته وحدة لا تتفصم عراها، فما يؤثث الكون ليس أشياء مادية بل علامات، ونحن لا نتحاور مع واقع مصنوع من ماديات، بل نتداول هذا الواقع من خلال وجهه السيميائي. "إننا نحيا داخل كون رمزي" القول لبيرس.

ويتخذ الترابط بين العناصر الثلاثة المشكلة للعلامة (ماثول، مؤول، موضوع) الشكل التالي: أداة للتمثيل، تستدعي موضوعا كشيء للتمثيل، وتستدعي مؤولا كرابط بين العنصرين، أي ما يوفر للماثول إمكانية تمثيل الموضوع بشكل تام داخل الواقعة البلاغية.

مؤول

ماثول.....موضوع

(الخط المنقطع يشير إلى أن العلامة بين الماثول والموضوع ليست مباشرة، بل تمر عبر المؤول).

- الماثول:

يعرف بيرس الماثول بقوله: "الماثل هو شيء يعوض بالنسبة لشخص ما شيئاً ما بأية صفة، وبأية طريقة، إنه يخلق عنده علامة موازية، أو علامة أكثر تطوراً، إن العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولا للعلامة الأولى، وهذه العلامة تحل محل شيء: موضوعها".

وبناءً عليه يشغل الماثول كأداة نستعملها في التمثيل لشيء آخر، إنه لا يقوم إلا بالتمثيل، فهو لا يزيدنا معرفة به، ذلك أن موضوع العلامة هو ما يجعلها شيئاً قابلاً للتعرف.

ويستفاد من هذا التعريف أن الماثول: يحل محل شيء آخر. أداة للتمثيل. لا يوجد إلا من خلال تحيينه داخل موضوع ما. لا يستطيع الاحالة على موضوعه إلا من خلال وجود مؤول يمنح للعلامة صحتها (توفير شروط التمثيل).

ويمكن القول أن الماثول يقوم بنفس الدور الذي يقوم به الدال في التصور السوسوري، فمهمة الماثول كما هي مهمة الدال تكمن في التمثيل لشيء ما، في أفق منحه وضعاً تجريدياً أي مفهوماً، وبدون الماثول لا يمكن أبداً أن يتحول الشيء إلى علامة. مثال ذلك المتوالية الصوتية "شجرة" هذه المتوالية هي ماثول يحيل على مؤول، أي مفهوم الشجرة.

- الموضوع:

هو ما يقوم الماثول بتمثيله سواء كان هذا الشيء الممثل واقعيًا أو متخيلاً أو قابلاً للتخيل، أو لا يمكن تخيله على الإطلاق. وإذا كان الموضوع في التصور البيروني لا يعين مرجعاً منفصلاً عن فعل العلامة ذاتها، فإنه لا يشتغل إلا كعلامة، بعبارة أخرى الأمر لا يتعلق بموضوعات تتحرك خارج دائرة فعل السيميوز، بل يتعلق الأمر بعنصر يعد جزءاً من العلامة. وبناءً عليه فإن الموضوع لا يوجد له مقابل عند دوسوسير، وعند الحديث عن موضوع ما داخل السيميوز لا يمكن أن ينفصل عن عملية الاتصال نفسها، فالمرسل والمستقبل يجب أن يمتلكا معرفة سابقة عن موضوع ما لكي يكون هناك حوار.

ويمكن التمييز بين معرفة مباشرة، ومعرفة غير مباشرة، فالمعرفة المباشرة هي تلك المعرفة المعطاة من خلال الفعل المباشر للعلامة، أما المعرفة غير المباشرة فهي تلك التي تدرك من خلال ما هو مفترض من خلال التحقق الخاص لهذه العلامة، أي من خلال سياقها البعيد، ويطلق بيروني على المعرفة الأولى: الموضوع المباشر، أما المعرفة الثانية فيسميها الموضوع الديناميكي. الموضوع الأول معطى من خلال العلامة بشكل مباشر، أما الثاني فهو حصيلة لسيرورة سيميائية سابقة يطلق عليها بيروني التجربة الضمنية. مثال ذلك الجملة التالية: شجرة طويلة، فالموضوع المباشر هو اسناد صفة الطول إلى الشجرة، وهو أمر يدركه كل من له معرفة باللغة العربية، أما أن تكون الشجرة دالة على الخصوبة أو الوطن، أو الدين أو أي مضمون أسطوري آخر، فذاك أمر يتطلب معرفة بالثقافة التي تصاغ ضمنها هذه الجملة.

- المؤول:

يشير المؤول إلى عنصر ثالث داخل نسيج السيميوز، وهو عمادها وبؤرتها الرئيسية، وهو يشكل التوسط الالزامي الذي يسمح للماثول بالإحالة على موضوعه وفق شروط معينة، فلا يمكن الحديث عن العلامة إلا من خلال وجود المؤول، باعتباره العنصر الذي يجعل الانتقال من الماثول إلى الموضوع أمرا ممكنا، وهو الذي يحدد للعلامة صحتها، ويضعها للتداول كواقعة إبلاغية، وهو شبيه بالمدلول السوسوري في صورته البسيطة، فهو الفكرة التي بموجبها يحيل ماثول ما على موضوع، أو هو التصور الذهني العام الذي نملكه عن الشيء الموجود في العالم الخارجي.

فالمعارف المتولدة عن الإحالة الصافية (ماثول يحيل على موضوع) خارج أي قانون أو فكر، هي معارف تتميز بالهشاشة والغموض، فهي بلا ذاكرة، وغير قادرة على التحول إلى معرفة عامة، إنها مرتبطة بواقعة بعينها، وستختفي باختفاء الشروط التي أنتجتها، أما الحالة الثانية، فإن الإحالة تتم وفق قانون أو فكر يجعل من الواقعة ذاكرة قابلة للتعميم، مثال ذلك أنك إذا نطقت أمام شخص ما بكلمة "شجرة"، ولم يكن هذا الشخص قد سمع بهذه الكلمة أو رأى الشجرة، فإنه لن يدرك من هذه الواقعة سوى مجموعة من الأصوات، التي قد تثير لديه بعض الانفعالات أو الأحاسيس، ولكنها لن تقود قطعا إلى إدراك أي شيء. لحظتها سيكون بإمكانك أن تأخذ بيده لتريه شجرة على الورق، أو شجرة فعلية في الواقع، وفي هذه الحالة فإنك لا تقوم إلا بربط ماثول (صورة) بموضوع (ما تتضمنه الصورة أو الواقع)، لأن هذا الربط هو ربط محلي ومؤقت، فما دام هذا الرجل لا يمتلك الشجرة فكريا، فإنه لن ينظر إلى الواقعة إلا باعتبارها تجربة صافية خالية من الفكر، ولكن إذا بررت هذه العلاقة من خلال تجريد الواقعة، وتحويلها إلى مضمون معرفي يتجاوز الواقعة العينية (النسخة بتعبير بيرس)

يسمح له باستحضار كل ما يشبه هذه الواقعة، أي أن الشجرة التي رآها منذ قليل تتحول عنده إلى نموذج عام، يستطيع من خلاله استحضار كل الأشجار الممكنة، كيفما كانت الصور التي تحضر بها إلى الواقع، وهذا ما يقوم به المؤول، وتلك وظيفته داخل العلامة.

وعلى هذا الأساس، فالتدليل لا يمكن أن يستقيم من خلال إحالة ثنائية التكوين، فالتدليل فعل ثلاثي يستدعي وجود ثلاثة عناصر مرتبطة فيما بينها: ماثول، وموضوع، ومؤول، وهذا هو الشرط الأولي للحديث عن تجربة فكرية (تجربة إدراكية)، ونمط البناء هذا يؤكد الطابع المركب للفعل الإدراكي، الذي يقود الذات المدركة إلى التخلص من العالم الخارجي، عبر استيعابه كقوانين، أي تمثله كسلسلة من النماذج المؤدية إلى استحضار التجربة عبر وجهها المجرد، والمؤول باعتباره أداة التوسط الإلزامي، يقوم بخلق حالة إدراك تسمح للذات بالانفلات من الإرغامات التي يفرضها الزمان والمكان، عبر الامتلاك الرمزي للكون، فمن خلال الرمز وداخله، استطاع الإنسان تنظيم تجربته في انفصال عن العالم، وما الدلالة إلا حصيلة حركة ترميزية، قادت الإنسان إلى التخلص من عبء الأشياء والتجارب والزمان والفضاء، ليخلق أشكالاً هي أدواته في ادراك الكون.

2. تصنيف الدلائل أو العلامات.

سننتاول تصنيف الدلائل من خلال ثلاثة تقسيمات:

1. التصنيف التقليدي للدلائل.

2. التصنيف الأكاديمي الفرنسي.

3. التصنيف الأمريكي.

1 - **التصنيف التقليدي للدلائل**: تقسم الدلائل في التصنيف التقليدي إلى:

- إرادية ولا إرادية
- دلائل طبيعية واصطناعية.

2 - **التصنيف الأكاديمي الفرنسي**: يميز بين أربعة أنواع من الدلائل: القرينة

.l'indice .الإشارة le signal .الدليل le signe .الرمز le symbole .

3 - **التصنيف الأمريكي**: قسم بيرس الدلائل في الثلاثينات من القرن 20م إلى ثلاث

مجموعات: الأيقونات les icones .المؤشرات les indexes .الرموز les symboles .

1 - **التصنيف التقليدي للعلامات**:

تقسم العلامات وفق التصنيف التقليدي إلى ما يلي:

أ/ **العلامات الإرادية**: وهي التي تصدر عن الإنسان قصدا وعنوة، وهي نوعان:

- اتصالية بحتة: يراد منها نقل المعلومات فقط.

• اتصالية جمالية: تستخدم لنقل الأفكار في أشكال جمالية مختلفة.

ب/ العلامات الإرادية: هي التي تصدر عن الإنسان بغير قصد ولا يتحكم فيها، وهي أنواع منها: صوتية، حركية، شكلية، ..

ج/ العلامات الطبيعية: هي العلامات التي تنتجها الطبيعة، تحددها قوانين فيزيائية بحتة، بحيث يرتبط الدال والمدلول بعلاقة سببية مباشرة، وهي أنواع: صوتية، حركية، شكلية، شمعية، ذوقية، حسية (لمسية) ..

د/ العلامات الاصطناعية: وهي من صنع الإنسان وضعت بصفة اعتباطية أو اصطناعية-أي بموجب اتفاق عرفي- من أجل إقامة الاتصال وتحقيقه بوساطتها، وهي أنواع أيضا: صوتية، حركية، شكلية، شمعية، ذوقية، لمسية..

وهذا لا يمنع من أن تسخر الدلائل الطبيعية مثل السحاب، والرياح، والبرق، والرعد، والثلج،.. في ديكور مسرحية أو مشهد سينمائي لأعراض الاتصال، إذ تستخدم لغرض التقديم الانطباعي للواقع (Impression contexte diégétique)، ولخلق السياق الروائي، في المؤثرات الخاصة والأستوديوهات الافتراضية، وهنا تتحول الدلائل الطبيعية إلى دلائل صناعية وإرادية، وتكتسب الظاهرة بموجب ذلك وظيفة دلالية، بحيث تفهم علاقتها بمدلولها على أنها علاقة مقصودة متعمدة.

والعلامات أو الدلائل الاصطناعية تمثل مجموع إشارات الاتصال التي نطلق عليها اسم الدلائل، بينما الدلائل الطبيعية تتجسد في القرينة.

2 - التصنيف الأكاديمي الفرنسي:

ممثله "فرديناند دوسوسير" أبو السيميولوجيا في هذه المدرسة، والواضع الأول لها، ليُعنى بالمستوى البراغماتي للسيميولوجيا، أي بفاعلية العلامة وتوظيفها في الحياة العملية، وفي عمليات الاتصال، ونقل المعلومات.

وحسب التصنيف الأكاديمي الذي أقامه "بايلون كريستيان وبول فابر"، يمكن دراسة أنواع الدلائل في شكل ثنائيتين رئيسيتين: القرينة والاشارة من جهة. والدليل والرمز من جهة أخرى.

2-1 / القرينة.

تعد النية في التبليغ العامل الأساسي في التمييز بين ما هو قرينة، وبين ما هو غير قرينة أي إشارة. فبخلاف الاشارة (الاتصالية)، فإن القرينة هي كل دليل لا يتضمن أي نية في التبليغ. وتتجسد القرينة في أربعة مجالات متميزة: اللغة، والبلاغة، والقانون، والسيميولوجيا.

أ/ في اللغة العربية: يراد بقرينة الكلام ما يصاحب الكلام، ويدل على المراد به، وهي التي لا تحدد وظيفة اللفظة، وإنما هي مجرد أداة تساهم في إعطاء لفظة من لفظات الجملة مدلولاً إضافياً مثل: أوات التعريف، س، سوف التسوييف، الصفة..

ب/ في البلاغة العربية: وتتجسد في المجاز اللغوي، كما في الاستعارة بنوعها: المكنية والتصريحية، والمجاز المرسل والمجاز العقلي.

القرينة في حالة الاستعارة هي المانعة من إرادة المعنى الحقيقي، والتي تساهم في الدلالة على المعنى المجازي، وقد تكون القرينة لفظية أو حالية. والقرينة في حال المجاز مانعة أيضا من إرادة المعنى الحقيقي، باستعمال اللفظة لغير معناها الأصلي لعلاقة غير المشابهة، بخلاف الاستعارة التي تقوم على علاقة المشابهة.

ج/ في القانون: هي الدلائل غير المباشرة التي يستخلص بواسطتها القاضي الحقيقة القانونية.

د/ في السيميولوجيا: حسب "لويس بريوتو": القرينة هي واقعة يمكن إدراكها فورا، وتعرفنا على شيء يتعلق بواقعة أخرى غير مذكورة.

ومن هذا التعريف فالقرينة لا تحمل أي نية في التبليغ مثال: السماء الغائمة تدل على احتمال وقوع المطر، آثار أقدام انسان بالنسبة لإنسان آخر.. فهذا النوع من العلامات يتسم بأنه يتوافر على خاصية التعليل، فهي علامات تطرح نفسها على أنها وقائع مرئية، تقدم وقائع أخرى غير مرئية تقديمًا مباشرًا، ولهذا فإنها توجه انتباه الانسان إلى موضوعها، عن طريق استنفار قواه الحسية.

2 - 2 / الإشارة:

يمكن تقسيم الاشارات إلى نوعين رئيسيين: اشارات الدلالة/ وإشارات الاتصال.

أ/ اشارات الدلالة: هي الاشارات التي على الرغم من أنها تحمل رسالة وتدل على شيء، إلا أن وظيفتها الأساسية لا تكمن في ذلك، بل في الدور الذي أنشئت لأجله مثال ذلك: المسجد الذي بني بالدرجة الأولى من أجل إقامة الصلاة (الجانب النفعي)، إلا أنه غالبا ما

تتجسد في هندسته المعمارية البصمات الفنية والثقافية والحضارية للشخص الذي أشرف على بنائه.

تكون الإشارة الاتصالية التي نخصها بتسمية الدليل (بخلاف الإشارة الدلالية) إما رمزا أو دليلا (سيميولوجيا أو لغويا).

2-3/ الرمز:

بخلاف الكثير من السيميولوجيين فرق دوسوسير بين الدليل والرمز، فنسب للدليل الصفة الاعتبارية، وإلى الرمز الصفة التعليلية، والرمز إشارة اتصالية تقوم على ركائز طبيعية، مثل الدخان الذي يعني وجود النار، بخلاف الدليل الذي لا يتمتع بأي علاقة طبيعية من شأنها أن تربط بين سلسلة الأصوات المكونة للدليل اللساني وما تمثله، أو بين شكل الضوء الأحمر الذي نجده في ملتقى الطرق والمعنى الذي يدل عليه.

يدل الرمز (Z) الذي تتضمنه لافتة المرور (المنع الخطير) على وجود خطر محتمل، وهكذا يكون بين شكل اللافتة ومنعرج الطريق علاقة طبيعية أو فيزيائية وطيدة (قياس analogie)، وفي هذا المثال يعد (Z) رمزا. فالرمز هو الإشارة الاتصالية التي تسجل علاقة قياس ثابتة داخل ثقافة معينة.

2.4/ الدليل:

بخلاف الرمز، الدليل لا يتمتع بأي علاقة طبيعية، مثال ذلك الاستحمام الخطير عند رؤية العلم الأحمر على الشاطئ، حيث نقول عن هذه الإشارة دليلا سيميولوجيا، أمثلة

أخرى للدليل السيميولوجي: لافتة الريح الجانبية، اللافتة التي تدل على وجود أشغال، نهاية الممنوعات..

والأمر نفسه بالنسبة لوحداث اللسان البشري بوصفها دلائل لسانية، لا تحمل أي علاقة طبيعية تمكنها من أن تربط الكتابة الصوتية بما تدل عليه.

3 - التصنيف الأمريكي:

كل علامة عند بيرس هي ثلاثية العلاقة لها ماثول وموضوع ومؤول، وبيرس ميز بين ثلاثة أنواع من الدلائل: الأيقونة، والمؤشر، والرمز.

1.3- الأيقونة:

ضرب من العلامات التي تنفرد بخاصية التعليل وتستند على عامل المشابهة، وترتكز الدلائل أو العلامات الأيقونية التشابهية أو القياسية على مبدأ التشابه بين الدال والمدلول، سواءً كان هذا التشابه أو القياس سمعياً كالضجيج أو الضوضاء، أو كان قياساً أو تشابهاً بصرياً، كما في الرسم والصورة الفوتوغرافية.

هذا التشابه أو القياس بين الدال والمدلول يسمى في السيميولوجيا بدرجة الأيقونية، وهي الدرجة التي تسمح لنا من التعرف من خلال صورة فوتوغرافية أو كاريكاتورية مثلاً على علاقة معينة يشترك في ادراكها فرد أو عدة أفراد من الجماعة نفسها.

ويعرف بيرس الأيقونة بأنها علاقة تحيل إلى الشيء الذي تدل عليه بفضل سمات خاصة تمتلكها، فقد يكون أي شيء أيقونة لشيء آخر، سواءً كان الشيء صفة أو كائناً أو قانوناً، بمجرد أن يشبه هذا الشيء ويستخدم دليلاً له.

فالعلامات الأيقونية هي الدلائل التي تحاكي ما تشير إليه وهي:

- علامات عالية الأيقونة: كالصور الفوتوغرافية والصور التلفزيونية..
- علامات منخفضة الأيقونية: تكون المحاكاة فيها ضعيفة، كاللوحات الفنية القائمة على السريالية والتكعيبية.

2.3- المؤشر:

العلامة التي تشير إلى مدلول لعلاقة تلازمية، مثل الدخان في دلالاته على النار، وأثار أقدام المجرم في دلالاتها على تورطه في الجريمة.

والمؤشر يمكن أن يتناسب مع الدلائل الطبيعية والقرينة الفرنسية، لكن إذا كان المؤشر يمكن أن يكون على غرار الدلائل الطبيعية والقرينة الفرنسية خاليا من أي نية في التبليغ، إلا أن المؤشر على العكس من ذلك قد يكون مسخرا لأغراض الإتصال والإشارة المتعمدة، وفي الحالة الأخيرة يتجسد في كل دليل يستخدم بطريقة إرادية ليوحى بشيء (الإشارة الإيمائية) أو يشير إليه (الإشارة اللفظية). ويمكن أن ندرج في إطار الإشارة الإيمائية كل الدلائل الطبيعية التي يكون فيها ارتباط الدال بالمدلول سببيا، (كالدخان بالنسبة للنار) أو كل دليل يحيل إلى الشيء المشار إليه، من خلال التجاور الطبيعي (مثل خطوة البحار المتأرجحة التي تدل على مهنته)، أما الإشارة اللفظية فهي التي تتلخص وظيفتها في توجيه المخاطب إلى ما يجب الالتفات إليه ويركز على اهتمامه عليه.

3.3- الرمز:

يعادل الدليل عند دوسوسير، إذ يرى بيرس أن علاقة الرمز بمدلوله هي علاقة اعتباطية عرفية فقط، لا تستند إلى أي علاقة قياسية أو أيقونية تربطه بالواقع.

فالدليل الذي يحيل إلى الشيء الذي يشير إليه بفضل قانون، غالبا ما يعتمد على التداعي بين أفكار عامة، يطلق عليها بيرس اسم العادات والقوانين، وهي عنده أكثر الدلائل تجريدا، وما يلاحظ في هذا المستوى أن العلاقة بين الدال والمدلول هي علاقة عرضية وغير ومعللة، مثل البياض والسواد ودلالته على الحزن والفرح. فالدليل الرمزي هو الذي يفيد مدلوله بناءً على اصطلاح بين جماعة من الناس، مثال ذلك الحمامة البيضاء التي تحمل غصن الزيتون رمز السلام.